المتغير، من الشرط التاريخي الجديد الذي أعلن صعود الانسان الفلسطيني ثائراً. وفي هذا الشرط تجد طاقات البطولة الكامنة مناخاً ملائماً للتفجر.

و«أم سعد»، كيان فردي، ولكنه يحمل في داخله عمومية جماعية تعبر عن الحالة الشعبية العامة في الزمن الفلسطيني الجديد.

انها امرأة في الاربعين، لا تحمل السلاح لتقاتل، وانما تنتدب قطعة من كبدها، ابنها سعد، للقتال. لكنها لا تتوقف عند هذه النقطة، بل تنطلق متحركة لتقاتل واقعاً تعيشه، فتتصدى للمختار المتواطىء مع الماضي، وترفع القطع المعدنية الحادة التي القت بها الطائرات الاسرائيلية في طريق مطار بيروت، وتواجه بطش الطبيعة التي تفتك بالضعفاء. إنها تتحسس قضايا وهموم شعبها، وتحتفل بانعطافة التاريخ لصالح حركته، وتجاهد بطاقتها لتعزيز متغيراته نحو القطب الموجب.

انها دائمة الانتصاب، مثل الصارية، حاملة وعيها وحسها الشعبي البسيط، تُعلِّم وتتعلم. فالكاتب يعلن. «كنت انتظرها لأتعلم شيئاً» (ص ٢٤٥)، «علمتني طويلاً كيف يجترح المنفي مفرداته وكيف ينزلها في حياته كما تنزل شفرة المحراث في الأرض» (ص ٢٧٨).

حضور «ام سعد» هو حضور (البطل / الشعب)، وهنا لا يطل البطل المقاوم الغائب «فضل» من ذاكرتها كحالة رومانسية مفقودة، وإنما كحالة ذهنية تقدم من خلالها تلك المرأة درساً تعلمته ببساطة، حينما أشارت أن «عبد المولى» (القيادة العشائرية المتواطئة مع سلطات الاحتلال) هو الذي قتل «فضل»، وهي لا تريد لمثل ذلك التاريخ أن يكرر نفسه.

أما البطل المقاوم الحاضر، فيمثل «سعد» نموذجه القائم، الفدائي الذي انطلق من جديد حاملاً سلاحه، والذي تجاوز اللحظة التي وقف فيها «حامد» «ما تبقى لكم» رافعاً خنجره بنصله الحاد المتوهج في وجه عدوه. فكأنما «سعد» جاء لكي يغرس النصل في جسد العدو.

يؤكد غسان كنفاني ذلك بقوله، انه كتب رواية «ما تبقى لكم» قبل انطلاقه المقاومة الفلسطينية «...وكان من الخطأ، فنياً على الأقل، أن يفعل «حامد» أكثر مما فعل. كان توقعاً، وقد جعل «سعد»، بعد ذلك بثلاثة أعوام، هذا التوقع واقعاً»(١٨).

في زمن الحدث الروائي، تستبق «عائد إلى حيفا» الرواية السابقة، فزمنها هو اليوم الأخير من شهر حزيران ١٩٦٧؛ حيث ما زال الاحساس بالجرح الجديد حاراً، والبطولة تبدو غائبة. لكنه الغياب الذي يعني الموت ولا يعني الانتفاء.

.. نحن هنا أمام انعطافة تاريخية جديدة في حياة الفلسطيني، شهدت ، فيما بعد، زيادة فعالية المقاومة الفلسطينية. انه الزمن الفاصل بين ارتفاع السكين الذي حققه